الفصل الثاني

النظرية الأخلاقية: متطلبات وأركان

أ.د. جمال الجارالله

أستاذ طب الأسرة وأخلاقيات الطب

كلية الطب- جامعة الملك سعود

1442 هـ

النظرية الأخلاقية: متطلبات وأركان

ماهي النظرية؟

النظرية مصطلح مشتق من الفعل نظر، ويرجع إلى معنى واحد وهو تأمل الشيء ومعاينته[1] وأطال النظر وأنعم النظر: تأمل أو فكر بدقة ونظَّر بتشديد الظاء: وضع نظرية. ومنه التنظير: أي ما يتعلق بوضع نظرية أو وضع أمر في شكل نظرية[2].

وأما اصطلاحاً، فلها تعريفات كثيرة، لا تخلو أحيانا من الغموض، منها:

أنها "قواعد ومبادئ تستخدم لوصف شيء ما، وقد تثبت النظرية حقيقة معينة أو تساهم في بناء فكر جديد[3]"

أو هي "دراسة تأملية وعقلانية لفكرة تجريدية أو فكرة عامة"[4].

وقد يختلف تعريفها باختلاف الموضوع أو العلم قيد الدراسة.

فمثلاً من التعريفات أنها:

"شرح واضع للقواعد التي يستند عليها موضوع الدراسة أو الأفكار التي يتم اقتراحها لشرح حقيقة أوحدث، وبشكل عام، رأي أو تفسير"[5].

وهذا يتعلق بشكل أكثر بالنظرية العلمية أكثر من غيرها، وهناك تعريفات تتعلق بعلم الاجتماع والسياسة والاقتصاد ولم أقف على تعريف خاص بالنظرية الأخلاقية. ويمكننا أن نعرفها أيضا بأنها:

" مجموعة من البناءات والمفاهيم والتعريفات والافتراضات المتداخلة التي تعطي منظورا نظاميا للظواهر بتحديد العلاقات بين المتغيرات بغرض التفسير والتنبؤ بالظواهر" [6]

وما يعنينا هناهو أن نوضح الأسس التي تبني عليها النظرية الأخلاقية في الإسلام بمقارنتها بغيرها من النظريات.

ولا نريد أن ندخل في نقاش حول إثبات وجود نظرية إسلامية في الأخلاق في هذا البحث المختصر ولعله يتسنى لنا التوسع في هذا الموضوع في المستقبل بإذن الله، وإن كنا نرى أن هناك نظام أخلاقي إسلامي متكامل وليس مجرد نظرية.

---

1 ابن فارس، معجم مقاييس اللغة ص 997

2 معجم اللغة العربية المعاصرة – أحمد مختار

3 مفهوم النظرية لغة واصطلاحا. موقع: https://mawdoo3.com/

4 Theory: https://en.wikipedia.org/wiki/Theory

5 https://dictionary.cambridge.org/dictionary/english/theory

6 الغامدي،ماجد بن سالم. قراءة لنظرية المنهج التربوي في ضوء النظرية الإسلامية. مكتبة الألوكة. https://www.alukah.net/library/0/49958/ /

ونبدأ بتحديد مرتكزات النظرية الأخلاقية على وجه العموم، بمعنى ماهي هذه المرتكزات أو الأسس البنائية التي لا بد من وجودها لكي يكون لدينا نظرية أخلاقية مكتملة الأركان؟ وهذه المرتكزات كما حددها الدكتور محمد عبدالله دراز في كتابه"دستور الأخلاق في القرآن هي:

1) الإلزام
2) المسؤولية
3) الجزاء
4) النية والدوافع
5) الجهد[7]

وسنبدأ بمناقشة هذه الأسس تباعاً.

اولاً : مبدأ الإلزام

يعتبر الإلزام والالتزام من اهم الأسس التي يقوم عليها أي نظام أخلاقي إذ بدونه يصبح النظام الأخلاقي مفرغاً من محتواه الأساسي.

ومعنى الإلزام الخلقي أن الإنسان يلزم نفسه في سلوكه بمثل أعلى يعمل بمقتضاه ويتجنب من العمل ما يتنافى معه[8]

إنه الأساس الجوهري والمحور الذي يدور حوله النظام الأخلاقي فلا بد من وجود إلزام و التزام بالعمل الأخلاقي ودرجة الالتزام مبنية على درجه الإلزام من حيث القوة و الضعف ومن حيث التمسك بالمبادئ الأخلاقية أو عدم التمسك بها.[9]

واذا انعدم الالتزام انتفت المسؤولية وبانتفاء المسؤولية لا يتحقق العدل، ولا تستقيم أمورالحياة. ويرتبط بالإلزام ويترتب عليه الالتزام بالواجب، فلا تقوم الأخلاق إلا بهما معا.

إن القواعد الأخلاقية وما تتضمنه من إلزام تجعل الفرد يشعر بضغط مفروض عليه من الداخل ومن الخارج للالتزام بها ، ولابد أن يتم ذلك عن طواعية واختيار ،وحرية،و إرادة. وهذا الذي يؤدي إلى الرضا والقبول، أي شعور الالتزام[10]

مصادر الإلزام الأخلاقي:

---

[7] دراز، محمد عبدالله.دستور الأخلاق في القرآن.كل موضوع من هذه المواضيع أفرد له فصلا خاصا.
[8] جاد، أحمد محمد.محاضرات في علم الإخلاق ،ص 209
[9] يالجن، مقداد.علم الأخلاق الإسلامية ج1 ،ص 231
[10] نصار، جمال. مكانة الأخلاق في الفكر الإسلامي، ص 47، 48

يتوقف بعض الفلاسفة عند مصدرين اثنين للإلزام الأخلاقي هما: قوة الضغط والاجتماعي وقوة الجذب الناتج عن استمرار العون الإلهي[11]

ويضيف الفيلسوف كانط (Kant) قوة الزام اكثر عمقا وهي الملكة العليا في النفس الإنسانية والتي توجد مستقله عن الشهوة وعن العالم الخارجي معا [12]

مصادر الإلزام الأخلاقي في الفلسفة:

هناك اتجاهان أساسيان فيما يتعلق بالإلزام الأخلاقي وهما:

<u>الاتجاه الأول : الاتجاه الخارجي</u>

ونعني به قوة الإلزام بسلطه خارجه عن الإنسان. ويختلف مؤيدو هذا الاتجاه، فمنهم من يرى انه الجماعة أو المجتمع، مثل أوجست كونت، ودوركايم وغيرهما. ومنهم من يرجعها إلى سلطة الدين كما يرى رجال اللاهوت مثل القديس أوغسطين، وتوماس الأكويني، ويرون أن الدين وحده هو الذي يحدد الحسن والقبيح ومنه يجب أن نأخذ هذا التحديد[13] .

<u>الاتجاه الثاني : الاتجاه الداخلي</u>

ويرى أصحابه أن مصدر الإلزام الأخلاقي هو ذات الإنسان وشعوره بالمسؤولية وقد اختلف هؤلاء في مصدر الإلزام، فمنهم من يرى أنه العقل أي أوامر العقل ونواهيه ومن ابرزهم الفيلسوف الألماني كانط ، فالأخلاق عنده لا تستقيم إلا بسلطة ملزمه تستمد إلزامها من العقل الذي يعرف الواجب وخصائصه .

ومنهم من يرى أنها الوجدان أو الحاسة الأخلاقية أو ما يعرف بالضمير الأخلاقي حيث تقوم هذه القوة الكامنة في داخل الإنسان تفرض عليه أن يفعل الخير ويجتنب الشر[14]

وهناك من يرى أن مصدر الإلزام الأخلاقي هو المنفعة[15] والى هذا ذهب النفعيون أمثال جون ستيورات مل، وبينثام ومن سار على نهجهم، حيث اعتبروا أن المنفعة هي الجزاء وهو من اهم الدوافع التي تدفع الإنسان إلى الالتزام الخلقي[16]

مصدر الإلزام الأخلاقي في الإسلام

يذم القران الكريم اتباع الهوى والانقياد الأعمى قال تعالى: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)(الجاثية : 23)

---

[11] دراز، محمد عبد الله. دستور الأخلاق في القرآن، ص 23

[12] دراز، محمد: المرجع السابق، ص 26

[13] جاد، أحمد: مرجع سابق، ص 210 – 212،و نصار، جمال: ص 48، ويالجن ،مقداد : مرجع سابق،ص232

[14] جاد، أحمد: مرجع سابق، 214، نصار، جمال: مرجع سابق، ص 48، بالجن، مقداد: مرجع سابق، 232

[15] يالجن ، مقداد: مرجع سابق، ص232

[16] جاد، أحمد: مرجع سابق،ص 205، نصار ،جمال: مرجع سابق، 48

وقال تعالى في معرض ذم الكفار:

(بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ) (الزخرف : 22)

ويؤكد على أن النفس الإنسانية تلقت في تكونيها الأول الإحساس بالخير وبالشر: **(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)** (الشمس:7)، وانها مزودة ببصيرة أخلاقية: **(بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ)**(القيامة: 14).

وأن الله قد هداها إلى طريقي الفضيلة والرذيلة: **(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)** (البلد: 10)

وأن في الإنسان قوة باطنة توجه له أوامر ونواه ألا وهي العقل: **(أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)** (الطور: 32). والأحلام هي العقول[17].

وإضافة إلى الوحي كمصدر للإلزام في الإسلام، يعترف الإسلام أيضا بسلطة المجتمع ويفسح لها مجالاً. وما واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة إلا تجسيداً لهذا الاعتراف[18].

يقول تعالى: **(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)** (لقمان:17).

ومن ذلك قول الرسول ﷺ:"من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه.."الحديث[19].

كما أن الإسلام أعطى مجالا للضمير الأخلاقي كمصدر من مصادر الإلزام الأخلاقي[20]

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "البر ما اطمأنت إليه النفس والإثم ماحاك في القلب وتردد في الصدر" [21] رواه احمد وحسنه الألباني .

والإلزام في الإسلام ليس إلزاماً تعسفيا وإنما تميز بمراعاة الفطرة الإنسانية و الظروف التي يكون فيها الإنسان .

ويتميز الإلزام في الإسلام بالخصائص الآتية[22]:

1- **<u>الإلزام بقدر الاستطاعة</u> :**

---

17 دراز ، محمد: مرجع سابق،ص 23 – 28

18 نصار، جمال: مرجع سابق، ص 49

19 صحيح مسلم.كتاب الإيمان(رقم99)

20 يالجن، مقداد: مرجع سابق، ص 232-234، نصار،جمال: مرجع سابق،ص 49.

21 أخرجه أحمد(18028) ، حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: الدرر السنية:

https://dorar.net/hadith/sharh/113607

22 دراز:مرجع سابق ، ص ،يالجن:237-251، جمال نصار ،ص52-55

يقول الله سبحانه وتعالى **(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)** (البقرة 286)

2- اليسر ورفع الحرج :

وهو مبدأ إسلامي أصيل. يقول الله تعالي:" **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"** (المائدة: 6)

وقال تعالى:**" شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"** (البقرة: 185)

ومن هنا جاءت الرخص في العبادات والتدرج في الأحكام. وقد عبر عنه العلامة الطاهر بن عاشور بمقصد " السماحة" واعتبره أكبر مقاصد الشريعة الإسلامية[23]

3- تحديد الواجبات والتدرج فيها

يدعو الإسلام إلى فعل الخير والإكثار منه. ولأن أفعال الخير غير متناهيه وليس بمقدور الإنسان أن يعمل الخيرات كلها، فقد رتب الإسلام الأعمال الأخلاقية إلى درجات. فهناك الواجب المطلق وهو الإيمان ثم إن هناك درجات من الإلزام تبدأ بفرض العين ثم فرض الكفاية ثم الواجب ثم السنة المؤكدة ثم السنة غير المؤكدة ثم النوافل وأخيرا المكملات أو الكماليات. كما انه رتب المحرمات أو الشرور إلى كبائر وصغائر ثم المكروهات ثم فعل ما هو خلاف الأولى.

وقد ترك الإسلام مساحه كبيره بين الخير و الشر ألا وهي المباحات[24] ،وهي التي لا تدخل في باب الأخلاق ثم هناك ما يعفى عنه، ومنه اللمم[25] .وفي نفس الوقت امر بالتزود من الخيرات والبعد عن الشرور ودعا إلى الارتقاء والارتفاع إلى الدرجات العليا في فعل الخير[26]. يقول تعالى:" **أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ" (البقرة: 184)**

وذلك بعض أن بين حدود الفريضة.

---

[23] بن عاشور، محمد الطاهر. مقاصد الشريعة الإسلامية 58-60.

[2424] يالجن، مقداد: مرجع سابق، ص 237

[25] دراز، محمد عبد الله: مرجع سابق، ص 87-93

[26] دراز، محمد عبد الله، ص 87-93

وقال تعالى: **"وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ" (الأنعام: 119)**

وقال أيضا:" وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" الشورى 43

بل نجد الإسلام قد دعا إلى التسابق والمسارعة في الخيرات. قال تعالى:" **وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (البقرة: 148).** وقال تعالى:**" وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ " (آل عمران: 133)**، وقال تعالى:**" خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ"(المطففين: 26)**

4- مراعاة الحالات الاستثنائية[27]

ويظهر ذلك جلياً في تخفيف الإسلام بعض التكاليف عن المكلفين، في الظروف الحرجة أو الحالات الطارئة. ومن ذلك إباحة بعض المحرمات عند الضرورة ،كإباحة أكل الميتة أو لحم الخنزير، قال تعالى:" **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (المائدة: 3)**

و قال تعالى:" **وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ)** (الأنعام: 119)

ومن هنا جاءت القاعدة الفقهية (الضرورات تبيح المحظورات)، كما أبيح الكذب في حالات خاصة مثل الإصلاح بين المتخاصمين.

على انه يجب أن نقرر هنا أن هذه الحالات الاستثنائية ليست هي الأصل ولا تعتبر جزءا من الأخلاق بل هي حالات ضرورية قدر بقدرها ،والقاعدة الأخلاقية الأساسية هو التوفيق بين الوسيلة والغاية في الخيرية. وليس تبني فكرة (أن القاعدة تبرر الوسيلة) في كل الأحوال [28]

قوة الإلزام

تستمد قوة الإلزام في الإسلام من قوة الإلزام بالوحي وأثره في العوامل الأخرى المؤثرة في الالتزام وبهذا يكون قد تفوق على النظريات الأخرى في فكرة الإلزام.

ثانياً : المسؤولية

يمكن تعريف المسؤولية بانها:

---

[27] بالجن، مقداد: مرجع سابق، ص 242-249، وجمال نصار: مرجع سابق، ص 54،55

[28] بالجن، مقداد : مرجع سابق، ص 242-246

(تحمل الشخص نتيجة التزاماته وقراراته واختياراته العملية من الناحية الإيجابية والسلبية أمام الله في الدرجة الأولى وأمام ضميره في الدرجة الثانية وأمام المجتمع في الدرجة الثالثة)[29]

والمسؤولية شرط لازم للالتزام والإلزام الأخلاقي ولا يتصور وجودهما إلا بوجودها.

وقد وردت كلمة المسؤولية أوما يعبرعنها في خمسة مواضع في القران الكريم منها قوله تعالى : **وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) (الإسراء: 34)**

وقوله تعالى : **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)(الإسراء: 36)**

ومن ملامح المسؤولية في الإسلام أنها: [30]

1- مسؤولية شخصية لا يشارك الفرد فيها أحد

قال تعالى:" **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ"(المدثر: 38)**

قال تعالى:" **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ " الأنعام 164**

متميزة بذلك عن اليهودية حيث يتحمل الأبناء تبعة ذنب آباءهم وعن النصرانية حيث يعيش الإنسان رهين خطيئة ادم عليه السلام وتكفير المسيح مع انه لم يذنب [31]

2- عامة لكل المكلفين .... قال تعالى:" فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ" (الحجر: 92)

وأنها شاملة لكل أنواع التكليف ولا تختص بنوع من الأعمال

قال تعالى: **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)** (النحل :93)

وقال تعالى: **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ)** (الزلزلة :7)

وهناك مسؤولية اجتماعية عن تصرفات الغير تتجلى في شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [32]

قال تعالى **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ)** (آل عمران: 110)

وأساس المسؤولية الأخلاقية هي مایاتي :

---

[29] يالجن، مقداد: مرجع سايق، ص 252

[30] الحليبي ،احمد.المسؤولية الخلقية والجزاء عليها دراسة مقارنة،ص :5-61

[31] نفس المصدر،ص 58

[32] دراز، محمد عبد الله: مرجع سابق، ص 155

أ. اهلية الشخص المسؤول للقيام بالمسؤوليات التي يتحملها ويلتزم بها [33] .ويعني ذالك ان يكون بالغا عاقلا

ب. العلم بالحكم الخلقي وإدراكه [34] ،وذلك بان يكون الشخص واعيا لطبيعة ذاته ولسلوكه واهدافه ونتائج تصرفاته الايجابيه والسلبيه وعلى هذا (فالمسؤول اذا لم يكن واعيا بذاته ومقاصده من افعاله وما سينجم عنها فلا معنى لجعله مسؤولاً عن تصرفاته [35]

ج. حرية الإداره والاختبار [36] :يشترط للمسؤولية الأخلاقية إرادة حرة مدركه وبدون وجود هذه الإرادة لا يمكن ان يكون الشخص مسؤولا. كما يشترط لها القصد و الإرادة، والنيه دون إكراه او اضطرار ،فلا ترتب على العمل مسؤولية إلا اذا توافر فيه النية والقصد، فمتى وُجِدت الإرادة الحرة وجدت المسؤوليه [37]

والإسلام قد أكد مبدا حريه الفرد ومسؤوليته عن افعاله.

قال تعالى :" **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**" (الأنعام: 164)

وقال تعالى:" **وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (13) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**" (الإسراء: 13و14)

ثالثا: الجزاء

ترتبط المسؤولية بالإلزام، كما ترتبط بالجزاء، فالجزاء له أهمية مزدوجة تتعلق من جانب بالدفع نحو الإلزام والالتزام الأخلاقي ومن جانب آخر بالشعور بالمسؤولية الأخلاقية

أ. الجزاء في الفلسفة

هل الجزاء الأخلاقي نتيجة طبيعية للمسؤولية الأخلاقية؟

هذا ما يقرره بعض الباحثين، بل يرى أنه لازم لتحقيق العدالة بين الناس، فالمتصف بالفضيلة والمتحلي بها يستحق الثواب والمتصف بالرذيلة والمتحلي بها يستحق العقاب[38]،وان هذا يدفع الناس للإلتزام الأخلاقي. وهناك من يجادل في ضرورة الجزاء الأخلاقي، على اعتبار أن الالتزام بالأخلاق يجب أن يأتي منزهاً عن الأغراض[39]

وقد ناقش الدكتور محمد دراز رحمه الله الفكرة، فخلص إلى ضرورة وجود الجزاء الأخلاقي.. فيقول:"نعم، إن جزاء ضروريا، ومحدداً ينبغي أن يطبق في فكرة القانون ذاتها، وإذا كان القانون الأخلاقي لا يتضمن

---

[33] يالجن 252 ' احمد الحليبي 151؛ مانع المانع: القيم الخلقية بين الإسلام والغرب،دراسة تأصيلية مقارنة، ص 105

[34] يالجن، مقداد:مرجع سابق، ص 252 ومابعدها

[35] جمال نصار : مرجع سابق، ص 56

[36] انظر: يالجن، مقداد : مرجع سابق،ص 252 ؛ احمد الحليبي : مرجع سابق،ص 162 ؛ وما بعدها ؛ جمال نصار :مرجع سابق، ص 57-58 ؛ مانع المانع : مرجع سابق ،ص 100؛ دراز : 171 وما بعدها

[37] مانع المانع: المرجع السابق،ص 106

[38] محفوظ عزام، الأخلاق في الإسلام بين النظرية والتطبيق. دار الهداية ط1 ص 38

[39] دراز، محمد: مرجع سابق ص 245،246 وما بعهما

تنفيذه او انتهاكه أي نتيجة لصالح الفرد الذي يفرض عليه، اوضده، فإن هذا القانون لا يكون باطل الأثر فحسب، بل متعسفاً وغير معقول، بل إنه لن يكون ملزماً"[40]

ب. الجزاء الأخلاقي في الإسلام

اهتم الإسلام بالجزاء على الأعمال أيما اهتمام، ووضع أسسا وسمات لهذا الجزاء.

وبادئ ذي بدء يجدر التذكير بأن الشعور بالمتعة عندما نحسن التصرف وبالألم عندما نسيء التصرف ليس جزاء، وانما شعور بالتوافق أو التنافر مع المثل العليا[41].

يقول المصطفى ﷺ: "إذا سرتك حسنتك وسأءتك سيئتك فأنت مؤمن" رواه الإمام أحمد وصححه الألباني.[42]

والذي يصلح أن يُعد جزاءاً ليس الندم فحسب وانما التوبة، فهي جزاء إصلاحي، إلا أنه لابد من التأكيد على أن التوبة لا تكفي في التحلل من حقوق العباد إذ لا بد من آدائها[43]. ويمكن هنا ذكر انواع الجزاء الأخلاقي في الإسلام وهي:

1.الجزاء الإلهي:

وينقسم هذا الجزاء إلى ثواب وعقاب. فالثواب في حالة الإستقامة والعقاب في حالة الإنحراف. قال تعالى(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا**) (الكهف: 107)، هذا في مجال الثواب، وهناك آيات كثيرة تدل على هذا المعنى، ولا يكتفى بإثابة المحسن على إحسانه، بل يضاعف له المثوبة[44].

وأما في مجال عقاب المنحرفين والعاصين، فيقول تعالى:(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**) (آل عمران:91).

وقال تعالى:(**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ**) (آل عمران: 106) .وهناك آيات كثيرة بهذا المعنى.

على أن الإسلام يفرق بين كبائر الذنوب وصغائرها فيما يتعلق بالعقاب، فليست كلها على درجة واحدة، فهناك ذنوب كبيرة لا تغتفر أبداً كالشرك بالله، وهناك ذنوب لا تكفر إلا بالتوبة وهناك سيئات قد تسمى صغائر أو عصيان أو لمم، وعد الله بغفرانها إذاتم اجتناب الكبائر، قال تعالى:(**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ**) (النجم :32)

---

[40] دراز: نفس المصدر، ص 246

[41] دراز : نفس المصدر،ص 248

[42] أخرجه أحمد في ((المسند))(5/252) الدرر السنية: https://dorar.net/hadith/sharh/111387

[43] يالجن، مقداد:مرجع سابق 268-269

[44] يالجن، مقداد: نفس المصدر، ص 268: -269

ويستثنى من ذلك فئة ممن غلب عليهم الشر واستحكم في نفوسهم. قال تعالى:(**بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)** (البقرة: 81)[45].

هذا في الجزاء الإلهي الأخروي، فهل هناك جزاء الهي دنيوي؟

والجواب هنا: نعم. وعلينا أن ندرك أولاً أن الجزاء الإلهي في الحياة الدنيا ذا طابع عقلي وروحي ونسبة ضئيلة من العنصر المادي فمن ذلك قوله تعالى:(**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)** (الطلاق: 3

وقوله تعالى **{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} (96 الأعراف).**

ومن ذلك عنصر تأييد المؤمنين كما في قوله تعالى: **{إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} (120آل عمران).**

أما ما يتعلق في الجانب العقلي والروحي فمن ذلك التكفل بقيادة الفطرة إلى الوجهة التي تميل إليها.

{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} (69العنكبوت).

ومنه إصلاح العمل عند الإلتزام بالصدق والأمانة **{يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} (71الأحزاب.)**

ومن ذلك الجانب الروحي، ويتمثل ذلك في التغيير الإيجابي الذي تحدثه أفعالنا الخيرة في علاقتنا مع الله سبحانه وتعالى فمن ذلك: الحب للمؤمنين **{وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9الممتحنة)، {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} (آل عمران146).**

2- الجزاء الوجداني أو القلبي:

ويقصد به ذلك الشعور-المتأصل في نفوسنا- والذي نحس به إثر اقدامنا على فعل الخير. فالشعور بالسعادة والفرح عند فعل الخير أو بالتأنيب والألم عند فعل الشر، يعتمد على الوجدان الفطري لدينا[46]. وقيمة هذا الجزاء أعظم من الجزاء المادي، إذ يُشعرنا بالرضا والطمأنينة[47]. يقول الله سبحانه وتعالى:**{الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}**(الرعد 28).

---

[45] جاد، أحمد:مرجع سابق،ص 202

[46] االمانع، مانع: مرجع سابق، ص 112، انظر ايضا: يالجن ، مقداد: مرجع سابق ،ص 280 وما بعدها.

[47] نصار،جمال :مرجع سابق، ص 69.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "البر ما اطمأنت إليه النفس والإثم ماحاك في القلب وتردد في الصدر"[48] رواه احمد وحسنه الألباني[49]

3- الجزاء الطبيعي:

وهو مقتضى مخالفة القوانين الأخلاقية، حيث قد يرجع هذا الجزاء إلى السنن الإلهية نفسها ،مثل الإصابة بالأمراض نتيجة ارتكاب فاحشة الزنا أو الأمراض الناتجة عن تناول المسكرات مثلاً[50].

وقد يرجع إلى القوانين الطبيعية الإجتماعية مثل عدم الثقة بمن يخالف الصدق أو الأمانة، وعلى العكس عند الإلتزام بالقوانين الأخلاقية حيث الإطمئنان والرخاء والمحبة[51].

4- الجزاء الإجتماعي:

وينقسم الى قسمين:

أ) الجزاء غير المباشر: وذلك ما يجده كل فرد في المجتمع جراء انتشار الإنحلال الأخلاقي، مثل الكذب والنفاق والمحاباة والخيانة وغيرها ،وحينئذٍ، تصبح الحياة مليئة بالبغضاء والعداوات وتزول منها كل بهجة ومودة.

ب) الجزاء المباشر: وهو ما يقرره المجتمع من عقاب للمنحرف وثواب للصالح ومن ذلك ما قرره الإسلام عقوبة لمرتكبي الزنا.. قال تعالى: {**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (2النور).** وكذلك قطع يد السارق، وعقاب المحاربين لله ورسوله فهو حق المجتمع عند التعدي على حرماته، وهو حق لله من حيث الأصل[52]

رابعا: النية والدوافع

تقف النظريات الأخلاقية السائدة من النية والدوافع موقفاً سلبياً إذ أنها لا تقيم لها وزناً إلا إذا استثنينا فلسفة "كانط" الأخلاقية،إذ يرى أن الفعل يتصف بالأخلاقية متى ما كان دافعه إطاعة العقل، ولا يعترف بأية دوافع أخرى.

---

[48] أخرجه أحمد(18028) ، حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: الدرر السنية:
https://dorar.net/hadith/sharh/113607

[49] سبق تخريجه، ص 9

[50] يالجن، مقداد:مرجع سابق،ص 284

[51] نصارن جمال:مرجع سابق، ص 68

[52] يالجن: مرجع سابق ،، مقداد،ص 285-287، نصار، جمال:مرجع سابق،ص 86- 69

إن من فلاسفة الأخلاق من يرى أن مناط الحكم الخلقي هو نفس العمل، فما دام حسناً ونتائجه حسنة، كان خيراَ، وإذا كان سيئاً ونتائجه سيئة كان شراً فالنيات والمقاصد أمر لا نستطيع أن نطلع عليه ولهذا لا يجوز أن نجعلها مناط الحكم الخلقي[53].

أما الإسلام فقد رفع من شأن النية وجعلها أساساً في قبول العمل. يقول الله سبانه وتعالى:" **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**" (البينة: 5)

ويقول الرسول ﷺ **:"إنما الأعمال بالنيّات ، وإنما لكل امريء مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه"** (متفق عليه)[54]

فلا بد من حسن القصد وحسن النية ليكون العمل عموماَ مقبولاً، والعمل الأخلاقي مندرج في ذلك دون شك. وصحة العمل لا تكون إلا بالنية ،ولهذا عدها الفقهاء شرطاً من شروط العمل[55]. ومن هنا وجب أن تكون النية خالصة لله تعالى مبتغية مرضاته تعالى ،ليكون العمل خالصاً مقبولاً. ويقول الدكتور دراز رحمه الله:" إن النية خير والعمل القائم على النية الحسنة خير أكبر. لأنه العمل الأخلاقي المتكامل"[56]

ونخلص من هذا إلى الحقائق الآتية:

أ. أن الأخلاق لا يعتد بها شرعاً إلا بالنية المرتبطة بها.

ب. أن الأعمال الخلقية لا تكون مقبولة حتى يكون الباعث الأول على فعلها وجه الله تعالى.

ج. أن جزاء العامل على خلقه بحسب نيته إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً[57]

خامسا: الجهد أو العمل:

هناك عنصران لا ينفصلان في البناء الأخلاقي: النية والعمل، فالعمل الأخلاقي مهم كما هي النية.

والجهد يعني العلم بعزم وموضوعه إما مقاومة قوة أو (قهر مقاومة) فالمجاهدة مطلوبة في كل حال، فطريق الرقي الأخلاقي لابد فيه من بذل الجهد. قال تعالى: **(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) البلد 11**، ويتجلى هذا الجهد في مقاومة الميول السيئة التي تحث الإنسان على الشر بإستخدام قوة كفيلة بإستبعاد هذه الميول.

قال تعالى:(**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ)** (النازعات:40)

فكبح جماح الأهواء هو السبيل للوصول إلى الفضائل والرقي الأخلاقي وهذا هو المستوى الأول، أما المستوى الأعلى منه فيحتاج إلى كفاح متكرر، قال تعالى:(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) العنكبوت 69.

---

[53] زقزوق، محمود:مقدمة في علم الأخلاق، ص 45

[54] أخرجه البخاري (54)، ومسلم (1907) باختلاف يسير. الدرر السنية https://www.dorar.net/hadith/sharh/77125

[55] عبد الله كامل. اثر النية في العمل. شكبة الألوكه: 21 اكتوبر، 2017م:https://www.alukah.net/sharia/0/42274/

[56] دراز،محمد:مرجع سابق،ص 470

[57] الحليبي،أحمد:مرجع سابق ص 181

ويقول تعالى في الحديث القدسي:" وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل"

ويبقى أن هناك قاعدة وهي مسطرة في قوله تعالى:(**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ)** (يوسف: 53.

فالرجل الصالح في الإسلام ليس مجرداً من الشهوة أو غير مبال بالألم إلا أن اهتماماته عليا.

وقد عرفت الأخلاقية بأنها " فن السيطرة على الأهواء" والحق انها " بعث للحياة في القيم الأخلاقية" والعودة إلى فعل الخير بدل الإمتناع عن فعل الشر. يقول النبي ﷺ :" على كل مسلم صدقة. قالوا: فإن لم يجد؟ قال: فيعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: يعين ذا الحاجة الملهوف. قالوا فإن لم يجد؟ قال: فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة". متفق عليه.[58]

وهذا هو جهد المدافعة. فهي حركة مستمرة[59].

ولا بد أن يكون العمل أيضاً حسناً وصواباً والحسن الصواب هو ما يوافق شرع الله سبحانه وتعالى فيأتمر بأوامره وينتهي بنواهيه.

قال تعالى:" **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** " الحشر: 8

فهولاء هم الذين استحقوا المدح والقبول والرضا الإلهي.

يقول الدكتور محمد دراز:

تتضمن النية ثلاثة عناصر وهي: إدراك ما يجري عمله وإرادة انجاز العمل، واستهداف العمل من حيث انه مأمور به شرعاً.

ويقول:" في الأصل يتفق القانون والأخلاق في هذا الشرط – وهو النية – إلا أن القانون قد يعاقب على عمل تم بحسن نية وأحدث ضرراً كالقتل مثلاً.

ويقول:" من الناحية الأخلاقية،لايدخل في باب الأخلاق أي عمل لايكون في آن واحد إرادبا وشعوربا ومعقودا على النية"[60]

ويؤكد على أن للنية ثلاث حالات:

الأولى: العمل يحدث بلا نية، وسمى هذه الحالة : حالة "البطلان الأخلاقي"

الثانية : النية والعمل حاضران ، ولكن بهما بعض النقص، إما بوجود نية سيئة وهي حالة"اللاأخلاقية"،وإما أن العمل غير مطابق للنية، وهي حالة " الانحراف الأخلاقي"، أو سوء السلوك، وهي قابلة للإدانة أو العفو.

---

[58] اخرجه البخاري في صحيحه (3188/78 برقم 5699 (ومسلم في صحيحه (407/19 برقم 1750 https://cutt.us/p0ib6

[59] مستخلص بإختصار شديد من كتاب دستور الأخلاق في القران الصفحات من 585 – 612

[60] دراز، محمد:مرجع سابق، ص 425 إلى 465

الثالثة: العمل والنية حاضران ومتطابقان، وهي حالة " الأخلاقية الكاملة".

هذه أبرز المرتكزات التي تقوم عليها النظريات الأخلاقية،وتقوم من خلالها،فإذااكتملت واتضحت وترابطت،كانت النظرية أكثر مصداقية وأحرى بالقبول. وهاهي كلها واضحة المعالم في النظرية الإسلامية للأخلاق منبثقة من مصدر التشريع الأول وهو القرآن الكريم.

مسلمات النظرية الأخلاقية الإسلامية

هناك مسلمات تتبناها النظرية الأخلاقية الإسلامية، وتبني عليها وهي:

أولاً: مسلمة الصفة الأخلاقية للإنسان

ومقتضى هذه المسلمة أنه "لا إنسان بغير أخلاق" ويترتب علي هذه المسلممة ثلاث حقائق:

1- أن هوية الإنسان أساساً ذات طبيعة أخلاقية

2- أن هوية الإنسان ليست رتبة واحدة وإنما رتب متعددة. فقد يكون الواحد من الجماعة إنساناً أكثر انسانية أو اقل من غيره.

3- ان هوية الإنسان ليست ثابتة وانما متغيرة فيجوز أن يكون الفرد الواحد في طور من أطوار حياته انساناً أكثر أو أقل منه في طور سواه.

ثانياً: مسلمة الصفة الدينية للأخلاق

ومقتضى هذه المسلمة أنه "لا اخلاق بغير دين"ولا شك أن هذه المسلمة محل اعتراض من العلمانيين (اللادينيين) وغيرهم من اصحاب النزعات الإلحادية أو المادية.

والأخلاق قد تبني على الدين باحدى طريقتين:

أ. الطريق المباشر: وذلك بتلقي خبر هذه الأخلاق من الوحي الإلهي والتأسي بالرسول ﷺ الذي جاء بهذا الوحي

ب. الطريق غير المباشر: ويكون بإقتباس الأخلاق من الدين مع العمل على اخراجها عن وصفها الديني الألهي ،أو مع التستر المبيت على أصلها الديني، كما يقوم اللجوء إلى القياس على الأخلاق الدينية فيما يستنبط من اخلاق وضعية.

ويترتب على هاتين المسلمتين أن نقرر أن الهوية الإنسانية هوية دينية و "الإنسان كائن متدين".

مميزات الأخلاق الإسلامية وخصائصها:

الأخلاق في الإسلام ليست نتاجاً بشرياً، ولا جهداً عقلياً فلسفياً، وإنما وحي منزل من الله خالق الإنسان العالم بخلقه ،وأحواله ،وشؤونه، بل وشؤون الكون الذي يعيش فيه. قال تعالى:(**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِير)** (الملك: 14). فالإسلام في حقيقته عقيدة وشريعة وعبادات وأخلاق.

ومن مميزات وخصائص الأخلاق في الإسلام ما يأتي:

الأولى: الربانية

فالأخلاق في الإسلام مصدرها الوحي الإلهي والتشريع الرباني، وتنطلق من أوامره ونواهيه.

فهي ربانية المصدر، وهي كذلك ربانية الوجهة إذ تقصد من خلال الإلتزام بها إلى ربط الإنسان بالله تبارك وتعالى. وهو أمرلا تجده في أي القوانين الأخلاقية الوضعية .

الثانية: الشمول

فالأخلاق في الإسلام لا تتعلق بجانب واحد من جوانب حياة الإنسان، بل إنها تنتظم حياته من بدايتها إلى نهايتها ،وتفرد أجنحتها على كل نواحي الحياة. فدائرة الأخلاق واسعة جداً ونطاقها رحب. فهي تنظم علاقة الإنسان بخالقه تبارك وتعالى، كما تنظم علاقته بأخيه الإنسان، بل وحتى علاقته مع الحيوان والجماد.

كما يشمل جانب العقيدة، حيث الدعوة إلى الإخلاص والصدق بعيداً عن الرياء، وفي مجال العبادة حيث ابتغاء وجه الله بها، والإنضباط بحدودها المشروعة. وفي مجال الأخلاق الفردية نجد الدعوة الى الحياء والصبر، وفي مجال العلاقات الإنسانية نجد الدعوة إلى الإحسان وأداء الواجب والتعاون[61]. فمجال الأخلاق في الإسلام هو هذا الكون كله وفي جميع انحائه.

ومن جوانب الشمول في الأخلاق الإسلامية أن الإسلام لم يكتف بإضفاء الصفة الخلقية الحسنة على السلوك ذي الطابع النفعي او الضروري للحياة فحسب، وإنما أضفى ذلك على الجانب التحسيني والجمالي. فهناك آداب لكل نشاط من انشطة الإنسان حتى في مأكله وملبسه ومجلسه وممشاه، كما دعا إلى الظهور بالمظهر الحسن أمام الناس[62].

الثالثة: الواقعية والمثالية:

تتجلى مثالية الأخلاق في دعوتها الإنسان إلى التسامي والإرتقاء، فهي تنشدالمثل العيا في القيم الأخلاقية والسلوك الإنساني، وترنو إلى أن يصل إلى أقصى درجاب الكمال، هذه هي خاصية المثالية[63]، وفي نفس الوقت فهي أخلاق واقعية تتجلى واقعيتها في التكليف بقدر الإستطاعة ومراعاة الحالات الضرورية، وتجنب الإنسان الضيق والحرج، ولا تحاسب الإنسان على الاعمال التي تقع خارج نطاق إرادته كالخطأ والنسيان والإكراه[64].

---

[61] قرعوش، كايد: الأخلاق في الإسلام،ص 53،54

[62] القوسي، مفرح.دراسات في النظام الخلقي بين الإسلام والنظم الوضعية، ص 95- 98

[63] قرعوش، كايد: مرجع سابق، ص 54

[64] مرسي ، محمد منير.مجتمع الفضيلة:الأخلاق في الإسلام، ص 55

ومن ذلك أيضاً مراعاة الفوارق والقدرات بين الناس ومدى قدرتهم على الإلتزام بأحكام الدين، كما قال تعالى:(**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ**) فاطر 32.

ومع تفاوتهم في الإلتزام بأحكام الدين إلا أنه اعتبرهم جميعاً من المصطفينن واعتيرهم من العباد، ولم يلفظهم أو يرفضهم[65].

ومن أمثلة الواقعية إباحة الكذب في أحوال استثنائية كغرض الإصلاح بين الناس أو الكذب على العدو المحارب.

الرابعة: التوازن والتوسط

تتسم الأخلاق الإسلامية بالتوازن والتوسط، ويتضح ذلك في الأمور الأتية:

أ) **التوازن بين حق الجسم وحق الروح:**

فلا حرمان للجسم يصل إلى حد التعذيب كما في الرهبانية والرواقية البرهمية وغيرها، ولا إغفال لأمر الروح كما في اليهودية. فهاهو رسول الله ﷺ يبين هذا التوازن في رده على النفر الذي نزعوا إلى الرهبانية فقال:**"أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني".** رواه البخاري.[66]

ب) **التوازن بين الدينا والآخرة:**

وهذا واضح في اعتبار الإسلام أن الحياة الآخرة هي امتداد للحياة الدنيا، وأن الدنيا مزرعة لها. وفي معرض المدح يقول الله سبحانه وتعالى:(**وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**) (البقرة: 201)

وإشارة إلى الإهتمام بالحياة الدنيا مع ابتغاء الحياة الآخرة، قال تعالى:(**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**) (القصص: 77)

ج) التوازن بين الحقوق والواجبات

فلا دعوة إلى التراخي بكثرة الحقوق الفردية وإطلاق العنان بإسم الحرية، ولا إرهاق بكثرة الواجبات بل هناك توازن بينهما[67].

---

[65] قرعوش، كايد: مرجع سابق، ص 55

[66] صحيح البخاري الصفحة أو الرقم 5063 :الدرر السنية https://dorar.net/hadith/sharh/64188

[67] نصار، جمال: مرجع سابق، ص 44، 45

د) التوازن في النظر إلى الطبيعة البشرية، فلم يعتبرها خيراً محضاً ولا شراً محضاً وإنما يؤكد أن لديها استعداداً فطرياً لتقبل الخير والشر[68]. قال تعالى" وهديناه النجدين"(البلد:10). أي طريقي الخير والشر، فلديه الاستعداد لكليهما.

الخامسة: الثبات

يتميز الإسلام بثبات منهجه واصوله لأنه وحي من عند الله تعالى الذي أحاط علمه بكل شيء. فالقرآن الكريم محفوظ بين دفتي المصحف بحفظ الله تعالى له وهو المصدر الأساسي لكل القيم ومنها القيم الأخلاقية[69] وكذلك حُفظت احاديث الرسول ﷺ وسيرته بأن قيض لها من العلماء من حفظها، ونقح صحيحها من ضعيفها بمنهج متمير وجهد كبير، وهي مصادر مهمة من مصادر القيم الأخلاقية. وهذه القيم هي معايير للسلوك الإنساني، فلا بد لها ان تكون منضبطة لا تتغير ولا تتبدل[70].

ومن ذلك الثبات في الوسائل والغايات، فلا يجوز الوصول إلى الغاية بالوسيلة الخسيسة، ولا مكان لمبدأ " الغاية تبرر الوسيلة"[71]

كذلك فإن الوفاء بالعهود يبقى مبدأ ثابتاً وارسخاً لا يتغير مهما كانت الظروف فلا يجوز نقض عهد ولا عقد ولا ميثاق مهما كانت المصالح المتحققة من ورائه[72]، حنى مع العدو.

قال تعالى:(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (الأنفال: 72)**

ومع ثبات المبادئ الأخلاقية ورسوخها. هل هناك مجال لأي مرونة؟

ذكرنا عند حديثنا عن الواقعية والمثالية أن الأخلاق الإسلامية تتسم بالواقعية في مراعاة احوال الإنسان وقدراته والأحوال الطارئة وإباحتها لبعض التجاوزات – اضطراراً – أو مصلحة راجحة مع بقاء الأصل على ثبات المبدأ الأخلاقي.

---

[68] قرعوش ، كايد: مرجع سابق ،ص 58

[69] المانع، مانع: مرجع سابق، ص 187-188

[70] قرعوش: المرجع السابق ص 56

[71] زيدان ، عبد الكريم .ص 91

[72] قرعوش: المرجع السابق، ص 57